العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

المادّية في فكر المذاهب المعاصرة

« الحلقة الأولى »

دكتور مسعود عبدالله الوازني

كلّية الدعوة الإسلاميّة

تقديم :

ما كان لأحد من المسلمين أن يأبه لمادية الغرب أو يجرد قلمه ويخصص جزءاً من وقته لنقد هذا الفكر وكشف ملابساته وهو يعلم مدى تهافت هذا التيار المادي الملحد وتعارضه مع الفطرة السوية والمنهج القويم لو لم يجد هذا الفكر طريقه إلى عالمنا الإسلامي وتظهر آثاره الخفية والمعلنة في ساحاته وبين المتأثرين بثقافة الغرب ممن لم يتعمق الإسلام نفوسهم، ويملأ اليقين أرواحهم برؤيته الكونية التوحيدية ونظرته الميتافيزيقية وأن يتحول أمثال هؤلاء إلى دعاة يتزعمون هذا الاتجاه ويعملون على تسريب نظرياته وينادون بإقصاء الإسلام من ساحة الفكر والسياسة على ضوء ما حدث للمسيحية في أوروبا من إقصاء بعد ما

حققته النهضة العلمية من نجاح وانتصار على الكنيسة التي وقفت عقوداً من التاريخ في الصف المعادي للحركة العلمية. ولم يدرك هؤلاء أن ما حدث في أوروبا من صراع لم يكن في حقيقة الأمر بين الدين والعلم وإنما كان بين الكنيسة والعلم، وحتى إذا افترضنا أن المواجهة كانت مع الدين فالمسيحية كما نعلم لم تكن تحمل الحقيقة كاملة بسبب ما تعرضت له من وضع وتحريف. وضاعف من المأساة أن العلم نفسه لم يسلك منهج الاعتدال في رؤاه وأحكامه بسبب تطرف بعض الباحثين الذين استحوذت على عقولهم الحركة العلمية بعد نجاح التجربة فلجأوا إلى اعتماد الحس وتنكروا لكل شيء، بما في ذلك العقلُ نفسه الذي كان وراء هذه النهضة العلمية ذاتها، ثم ما لبثوا أن تنكروا لمتطلبات الفطرة السوية ورغبة الوجدان وأحلوا المادة كأساس للوجود واعتبروها هي منبع الإحساسات والتصورات، وجعلوا الإدراك نفسه في المرتبة الثانية، لأنه حسب وجهة نظرهم نتاج المادة بعد بلوغها أعلى درجات تطورها وأنكروا حقائق الوجود الكبرى التي لو كشف الله عن بعضها لصعق الإنسان لعجز طاقة حواسه عن استقبالها كما حدث لموسى عليه السلام في الموقف الذي كشفت عنه هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وسوف تكشف هذه المحاولة المتواضعة عن زيف وبطلان آراء دعاة المذاهب المادية المعاصرة الذين آمنوا بالمادة وأقروا بوجودها، واعتبروها هي المنشئة لغيرها، وأن الوحدة الحقيقية التي تجمع الكون هي ماديته، وأن ما وراءها لا يزيد عن كونه من ابتداع الخيال دون أن يدرك هؤلاء أن المادة التي آمنوا بها هي مجرد طاقة شكلت وفق قوانين حكيمة تنطق بوجود الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]. وقد جاء تفجير الذرة محطماً لكل الفلسفات المادية

(1) سورة الأعراف، الآية: 143.

(2) سورة طه، الآية: 50.

المعاصرة التي كانت تقف عند ظواهر الأشياء، وقد أثبت عالم الذرة أنشتاين بعد أن فرغ من تسجيل نظريته الفذة «أن العقل البشري حين يتأمل هذا الخفاء الكوني يدكر أن وراءه حكمة هي أحكم ما تكون الحكمة، وجمالاً هو أجمل ما يكون الجمال.. إنه الله». وفي هذا قال أيضاً كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك «إن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم تجعلنا نعتقد بوجود مدبر جبار وراء الظواهر الطبيعية»، وبذلك يمكن القول بأن الإيمان بوجود عالم الغيب قد أصبح حقيقة ماثلة في الأذهان، يعترف بها الماديون أنفسهم بعد هذا التقدم المدهش، ولكن الخطوة لا زالت تكمن في إقصاء الدين وعدم الأخذ به في تنظيم الحياة الاجتماعية في شتى أبعادها، وأن أهون ما جاء في حقه من تسامح لم تجاوز حدود دائرة اعتقاد الإنسان نفسه، وهي دائرة محدودة الأثر، ويضاعف من محدوديتها ما تعانيه المسيحية نفسها من قصور وضعف في جميع الميادين بما في ذلك المجال الروحي الذي يتسامح فيه أمثال هؤلاء، وإن نظرة عابرة إلى ما كان يحدث في القرون الوسطى بل وفي كل القرون تكشف لنا بوضوح عن المآسي والدموع والمظالم التي تقلب في أجوائها الإنسان في أوروبا، ولولا ومضات من نور الإسلام شعت في أجوائها لاستمرت في مآسيها حتى اليوم، وإن لم تبتعد بعد اختيارها للمادية أخيراً عن العودة إلى الأجواء المظلمة.

وكنت قد عزمت في البداية أن أعرض الفكر الغربي كما هو غير أني عدلت عن هذه الفكرة بعد أن تبين لي أنه من الأجدى أن أعتمد الفكر الإسلامي في دحض شبهات الماديين كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

أولاً ـ المادة في ظل البحوث العلمية:

المادة: هي الأصل الذي يتكون منه الشيء، فمادة السرير مثلاً: هي الخشب، ومادة الثوب الصوف، ومادة الورق هي القطن، ومدة المدينة أو القرية الدور والعمارات، ومادة الدور والعمارات هي الخشب والآجر والحديد، إلى

أن نصل من خلال هذا التسلسل إلى المادة الأساسية التي لا يمكن أن يوضع لها مادة(3). ونعني بها هنا: الجسم الطبيعي الذي يوجد على حالة أو يحول إلى شيء آخر لغاية ما. وفي الاصطلاح الأرسطي والمدرسي: المادة هي المعنى المقابل للصورة، ولها بهذا المعنى وجهان: أحدهما يدل على العناصر غير العينية التي يمكن أن تتحد ويتألف منها الشيء، ويسمى مادة أولى أو هيولى(4)، وهي إمكان محض قابل للصور مطلقاً من غير تخصيص والآخر لا يتحقق في الوجود بالفعل إلا بقيام الصورة(5)، ومن ثم فلا وجود لمادة في عالمنا بدون صورة أو لصورة بدون مادة.

ويقول (ذي رينون): المادة هي القوة والصورة هي الفعل، لكن لا شيء يوجد فعلاً، باستثناء ما يكون بالفعل، أي لا يمكن لمادة أن توجد ما لم يكن وجودها بالفعل عن طريق الصورة؛ لأنه لا شيء يوجد ما لم يكن وجوده محدداً تماماً. ولما كانت المادة قوة غير محددة بذاتها فلا يمكن لها أن توجد ما لم تقترن بصورة ما. وهذا ما ذهب إليه توماس الأكويني الذي كان يرى أن الصورة هي الوجود الفعلي، وأما القول بأن المادة توجد أولاً بدون صورة فهو لا يختلف عن قولنا: إن الوجود بالفعل ليس بالفعل، وهذا محال أي ليس للصورة الجوهرية وجود قائم بذاته ومستقل عما هي صورته، كما أنه ليس للشيء الذي هي صورته أعني المادة وجود مستقل عن الصورة، بل إن اقترانهما هو الذي ينتج هذا الوجود الذي يجعل الشيء قائماً بذاته ويخلق منهما وحدة جوهرية.

(3) لمزيد الاطلاع انظر فلسفتنا محمد باقر الصدر. ط13/ 1982 دار التعارف للمطبوعات بيروت لبنان ص297 ـ 298.

(4) الهيولى لفظ يوناني قديم معرب أطلق على الشيء الذي ليس له في ذاته صورة تخصه وهذا ما نعنيه هنا والنطفة بالنسبة للطفل تسمى هيولى ومن أراد الاطلاع فليرجع إلى المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا أو إلى غيره من المصنفات الفلسفية. أو إلى فكرة الجوهر في الفكر الفلسفي الإسلامي للدكتور سامي نصر لطف ط1/ 1978 مكتبة الحرية الحديثة جامعة عين شمس القاهرة ص143 ـ 152.

(5) الصورة هي الهيئة الحاصلة للمادة ولا بد من وجوهما معاً.

ولا يخفى هنا أن الصورة الجوهرية تختلف عن الصورة العرضية[6] من كون أن هذه الأخيرة لا تمنح الوجود وإنما تمنح ضرباً من ضروبه المتمثلة في الكم والكيف والأنماط الأخرى، كاللون والرائحة واللين والصلابة والطعم والبرودة والحرارة والحركة والسكون، وموضوعها هذا الوجود بالفعل وأما الصورة الجوهرية فهي التي تمنح الوجود بالفعل.

وفي كل الأحوال فإن المادة واقع عيني ملموس ومشاهد، وحقيقة موضوعية متطورة ومتغيرة وذات آثار واضحة. وقد اتجهت الدراسة منذ القديم للبحث في موضوع المادة وظهرت نظريتان: النظرية الانفصالية للفيلسوف الإغريقي (ديمقريطس) الذي كان يرى أن الجسم مركب من أجزاء صغيرة يتخللها فراغ؛ وهو ما يعرف بالذرة أو الجزء الذي لا يتجزأ. والنظرية الاتصالية وهي الأكثر شيوعاً، وقد أخذ بها أرسطو وتلاميذه فأثبتوا أن المادة شيء واحد متماسك يمكن تقسيمه إلى أجزاء منفصلة، وبعد النجاح الذي أحرزه التقدم العلمي في مجال الفيزياء. درست النظريتان وانتهى الحكم فيهما إلى الأخذ بالفكرتين معاً، وإذا كان هنالك تفاوت فهو يكمن في الوزن الذري لكل عنصر من تلك العناصر، كما اتضح أن الذرة تحتوي على نواة مركزية تدور حولها كهارب تسير بسرعة عالية، مكونة من شحنات متعادلة سالبة وموجبة، وهي التي تمثل الرقم المتصاعد في الوزن الذري، وعلى أساس من هذه الدراسة وُجد أن الهيدروجين يمثل أخف العناصر؛ لاحتوائه على شحنتين سالبة وموجبة، في حين وُجد أن اليورانيوم يمثل أثقل العناصر من حيث الوزن الذري لاحتواء نواته على 92 شحنة موجبة (بروتون)، ويحيط بها ما يماثلها من هذا العدد من

---

(6) تطلق كلمة عرض على كل موجود في موضوع أي عل كل صفة طارئة على الجوهر وغير مقومة له ويمكن التمييز بين أنواع من الأعراض. العرض اللازم وهو ما يمتنع انفصاله على الجوهر. والعرض المفارق وهو ما لا يمتنع انفكاكه عن الشيء. والعرض العام وهو المقول على أفراد كثيرين ويشترك في معناه أنواع كثيرون. وزيادة في التوضيح فإن توارد جملة من الأعراض على قطعة من الشمع كاللون والرائحة واللين والطعم والبرودة والحرارة فهي أعراض متغيرة أما جوهر الشمعة فدائم لا يتغير. انظر معجم المصطلحات الفلسفية. جلال الدين سعيد.

الالكترونات السالبة. وأما النيوترونات الكامنة في النواة فلا تأثير لها لخلوها من الشحنات، ولكنها مع ذلك تؤثر في الوزن لمعادلتها للبروتونات غالباً فعلى سبيل المثال: فإن الهليوم يعادل وزن أربع ذرات من الهيدروجين لاحتواء نواته على نيوترونين وبروتونين، في حين أن النواة الهيدروجينية تحتوي على بروتون واحد[7]. ولم يتوقف البحث العلمي عند حدود الاستكشاف، وإنما تمكن من التدخل في تبديل العناصر وتحويلها من عنصر إلى آخر، بل وإلى نقل بعض العناصر المكونة للذرة إلى جزء آخر، وإلى تغيير المادة إلى طاقة ونزع الصفة المادية للعناصر بصورة نهائية، ومن ثم فلم تعد الذرة تمثل الحد الأدنى الذي لا يقبل الانقسام أو الفناء أو الاحتفاظ بكتلتها وخصائصها كقوة طبيعية بعد التأكد من أن الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات هي عبارة عن طاقة متكاثفة يمكن تحليلها وإرجاعها إلى حالتها الأولى، كما يمكن تحطيمها وفصل أجزائها، وأن القوة المتولدة من تحطيمها يمكن أن تسهم في إصلاح الكون وتعميره أو إفساده وتدميره[8]. كما اتضح أن خواص تلك المركبات والعناصر المكونة للمادة ليست ذاتية وإنما هي موجودة بمقادير متفاوتة وغير متحدة، كما هو الحال بالنسبة لعنصري الماء (يدأو) فإن إمكانية الجمع بينهما تماثل درجة الفصل بينهما وردهما إلى حالتهما الغازية. وهذا يسلمنا إلى هذه الحقيقة وهي أن الطاقة هي الأصل العلمي للكون في جميع مظاهره وكائناته وإن برزت في أشكال مختلفة وصور متباينة صوتية ومغناطيسية وكيمائية وميكانيكية أو اختلفت آثارها وتعددت أفعالها من ماء وخشب وتراب وحديد وأزوت ورصاص وراديوم.

إنها المادة، ينظر إليها المسلم وغير المسلم على حد سواء، ويسلم كل منهما بوجودها العيني المشاهد، غير أن ثمة فرقاً بين النظرتين، فالمسلم يرى في هذا التناسق بين المادة والنظام والارتباط المنسجم بينهما والتوازن الذي يحكم تلك العلاقة أعظم الشواهد على وجود الله سبحانه وأصدق البراهين على قدرته الباهرة في الخلق والإبداع وإخراج هذا الممكن من جوف العدم إلى

---

(7) فلسفتنا مصدر سابق 289.

(8) الدين د. محمد عبد الله دراز ط/ 1990 دار القلم للنشر والتوزيع الكويت ص89 ـ 90.

الوجود ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[9] وفي هذا ورد أيضاً على لسان موسى عليه السلام في رده على فرعون المادي الملحد ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[10]. وقد سبق أن أشرنا إلى أن المادة والصورة لا يمكن أن يوجد كل منهما منفصلاً عن الآخر ومستقلاً عنه، بل لا بد من فاعل مختار أسبق لعملية التركيب هذه، هو الذي حقق للوحدات المادية وجودها والتنسيق بينهما[11]. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[12] وهي الحقيقة التي اتخذها القرآن الكريم سبيلاً إلى الاعتراف بوجود الله سبحانه، ومنها استمد الفلاسفة المسلمون أدلة الحدوث، وقد أشار ابن رشد إلى دليلي الاختراع والعناية، ونص على أنهما مركوزان في النفس لا يجحد بهما إلا معاند أو مكابر.

والآن: ماذا عن نظرة غير المسلمين من فلاسفة الإلحاد[13]؟ إنهم يعتقدون أن الأصل الذي يجمع الكون كله هي ماديته، فهي أزلية أبدية منشئة لغيرها، وهي الأساس الذي أنشأت الحياة والإنسان، وأنشأت كل ما يحتوي عليه عالم الإنسان من أفكار ومشاعر، وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شيء. وفي هذا الاتجاه قال ماركس (ليس وعي البشر هو الذي يحدد كينونتهم، بل كينونتهم التاريخية وظروفهم المادية هي التي تحدد كينونتهم)[14] بل إن عقل الإنسان في منطق هذه الفلسفة بما فيه من معرفة وليد الطبيعة التي تتمثل في

---

(9) سورة الأنعام، الآيتان: 102 و103.

(10) سورة طه، الآية: 50.

(11) لمزيد الاطلاع انظر فلسفتنا مصدر سابق ص305.

(12) سورة الملك، الآية: 3.

(13) الإلحاد في اللغة هو الميل عن القصد والعدول عن الشيء، ويقال ألحد في الدين إذا حاد عنه وطعن فيه، والإلحاد مذهب من ينكر وجود الله، والملاحدة أو الدهرية فرقة من الكفار أسندوا الحوادث إلى الدهر، وقالوا ليس ثمة سوى أرحام تدفع وأرض تبلع انظر الكشاف للتهانوي.

(14) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. جلال الدين سعيد ط/ 1998 دار الجنوب للنشر تونس ص504.

الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية، إنه مخلوق ولكن خالقه هو الوجود الحسي، إنه يفكر ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به، إنه مقيد مجبر، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية. ليس هناك عقل سابق على الوجود المادي، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الوحي. وإن ما يقال عن الكائنات العلوية فهي في نظرهم ليست سوى انعكاس خيالي لوجود الإنسان نفسه[15]. إنها خيبة أمل كبرى أن ينحرف التفكير بأمثال هؤلاء فيعتقدون أن تلك الذرات المكونة للمادة أوجدتْ نفسها بنفسها بعد أن كانت عدماً محضاً، ثم أصبحت منبعاً للوجود ثم أصدرت لنفسها وهي مادة صماء لا تعقل القوانين التي تحكمها كما هو الحال بالنسبة للمجموعة الشمسية التي تتحرك وفق نظام دقيق ومعقد للغاية يحفظها من الاصطدام والانحراف. وإذا كان الأمر كذلك كيف أصبحت عاجزة بعد اكتمالها عن الخروج عن تلك القوانين التي كانت هي السبب في إيجادها عندما كانت دنيئة؟ ثم لماذا لم تستمر في تطوير نفسها أو نشهد لها تحولات جديدة أو تعويض ما تفقده من مكوناتها؟ إن مزاعم هؤلاء تجعلنا نقرر ونحن مطمئنون بأنهم فقدوا رشدهم ولم يبق لهم ذرة عقل يمكن أن يفكروا بها بادعائهم أن مادة صماء كهذه تعاني من قصور ذاتي عاجزة عن تخطي القوانين التي تحكمها أن تصبح وهي العلة المنفعلة علة فاعلية ما لم تكن هناك قوة فاعلة مختارة أوجدتها ونسقت عملية التركيب بين مكوناتها وفطرت من تلك الذرة البسيطة هذا الخلق المتنوع الذي لا يعلم عن كنهه إلا الله.

إن المنطق السليم والبحث العلمي الجاد يرفضان وبكل قوة ما يدعيه الماديون سواء من يعتقد منهم في أزلية المادة أو يؤمن بفكرة التسلسل التي تفرض أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضها إلى ما لا نهاية بحيث يكون كل واحد منها معلولاً لما قبله وعلة لما بعده[16].

---

(15) انظر في هذا مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب ط/ 1987 دار الشروق بيروت ص265.

(16) لمزيد الاطلاع راجع كبرى اليقينيات الكونية د. محمد سعيد رمضان البوطى ط/ 9/ 1411هـ موضوع بطلان التسلسل ص81 وما بعدها.

وبماذا سيكون رد القائلين بأزلية المادة بعد أن أثبت العلم أن المجموعة الشمسية لا تزال تسير نحو حالة تصل فيه جميع الأجسام إلى درجة حرارية متشابهة تنفد فيه حينئذ كل طاقة يمكن أن تصرف، وعندما تصل الأمور إلى تلك الحالة سوف تمتنع الحياة على هذه الكرة، ولو كانت أزلية كما يزعمون لما آل أمر المادة إلى فناء. وأما من يقولون بالتسلسل ويحيلون مسألة الخلق على ظلمات ماض لا بداية له، فلو صحت هذه المزاعم لما شاهدنا انقراض بعض العلل التي كانت سبباً لما بعدها، ولعل في هذا المثال ما يوضح هذه الصورة: فإن من يزرع بذرة سيشاهد تحولات تجتاز فيه البذرة مراحل معينة، ثم تنقرض وهي الأصل، وتنمو أخرى أو أخريات تحمل خصائص تلك البذرة ومواصفاتها، وأما البذرة الأصل فتموت ولن تعود إلى ممارسة نشاطها من جديد، ولاشك أن في هذه الأدلة وفي غيرها ما يدحض آراء الماديين ويقطع عليهم الطريق في تبنيهم لمثل هذه المزاعم الباطلة.

ولا شك أن هذا الفكر المادي الذي سجن المعرفة البشرية في حدود الحس القائم على البعد الواحد دون أن يعتد بالنبوات أو الوحي لم يكن وليد عصر معين أو بيئة محدودة، وإنما شهدت البشرية أمثلة له في كل العصور والبيئات على اختلاف صوره وتنوع اتجاهاته، فمنهم من ادعى الألوهية وأنكر وجود الخالق، ومنهم من أنكر اليوم الآخر ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[17] كما وجدت له جذور في الفكر اليوناني وبخاصة على يد السوفسطائيين، وإن لم يصل إلى حد تكون مداري. أما كيف عاد مرة أخرى إلى أوروبا المسيحية وأصبحت له اتجاهات مذهبية ومدارس فكرية، فمن المؤكد أنه لم يقفز إلى الوجود دفعة واحدة من الروحانية الدينية إلى المادية اللادينية، ولا استقام نحو هدفه في طريق واحد خال من الذبذبات والمد والجزر، ولكنه كان في كل قفزة يتجه نحو المادية بصورة أكبر، إلى أن انتهى به المطاف إلى هذا الاتجاه الملحد الذي يقوم على اعتماد الحس المشاهد أساساً للمعرفة اليقينية، واعتبر ما

(17) سورة الجاثية، الآية: 24.

وراء الحس أمراً مستحيلاً. وقد ضاعف من هذه النزعة المادية اكتشاف قوانين الطبيعة، أي ما يسمى بقانون السببية الذي يفسر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة التي يجري الكون بمقتضاها، ويعني هذا أن الحوادث في الماضي من أمراض وغيرها كانت تعلل قبل اكتشاف المكروبات والظواهر الكونية الأخرى بالاستناد إلى الله، ثم بعد أن تطورت العلوم فصار كلما اكتشف العلم سبباً إلا وضاقت دائرة الإيمان بالله، إلى أن استكمل العلم نطاق المجهولات ومن ثم فلم تعد هناك حاجة إلى الإيمان بالله.

والذي يثير الاستغراب كيف يمكن أن يكون اكتشاف القوانين التي تحكم الطبيعة والأسباب والعلل التي يقوم عليها النظام الكوني سبيلاً إلى إنكار عالم الغيب في حين كان ينبغي أن يؤكد العلم بعد اكتشاف هذه الحقائق على وجود الله. أما أنهم لا يؤمنون بوجود شيء ما لم يحصوا بوجوده إحساساً مباشراً ويرفضون كل فكرة ما لم يدركوا واقعها الموضوعي بأحد حواسهم؛ فإنهم بذلك يكونون قد سجنوا أنفسهم في دائرة حواسهم، ونسفوا الكيان العلمي كله، وأبطلوا جميع الحقائق الكبرى المبرهن عليها بالتجربة التي يقدمونها؛ لأن إثبات حقيقة علمية بالتجربة ليس معناه الإحساس المباشر بتلك الحقيقة في الميدان التجريبي. ولا أدل على ذلك من أن نيوتن عندما وضع قانون الجاذبية العامة على ضوء التجربة لم يكن قد أحس بتلك القوة الجاذبة بشيء من حواسه الخمس، وإنما اكتشفها عن ظاهرة أخرى محسوسة لم يجد لها تفسيراً إلا بافتراض وجود القوة الجاذبة[18]. فضلاً عن أن معرفة الأسباب والعلل التي توحي بمبدأ التناسق وما تتصف به المادة من تنوع واختلاف وقصور ذاتي يكشف بوضوح عن سبب وراء المادة ولا يكمن في المادة ذاتها[19] وأخيراً لا أعتقد أن عاقلاً يمتلك فطرة سوية يمكنه أن يصدق أن مادة عمياء تنتج موجودات حية وتخلق كائنات شاعرة أو تهب العقل لموجودات وهي صماء فاقدة للعقل نفسه

(18) انظر فلسفتنا مصدر سابق 294.

(19) المصدر السابق 297.

وليس هناك من جواب شاف للرد على هؤلاء الماديين أصدق من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[20].

ثانياً ـ العوامل المؤثرة في ظهور الفكر المادي:

لم تكن المادية من الأمور المستحدثة أو الغريبة عن تصورات الغرب، وإن لم تتبلور كما يرى البعض في مدارس فلسفية بالصورة التي برزت أخيراً كتابات الباحثين إبان القرن الثامن عشر الميلادي وما بعده، ومن يدري: فلعله كانت هنالك مدارس ونظريات في تلك الأحقاب الزمنية المتباعدة من التاريخ، وإن لم يصل إلينا من جهود تلك الأجيال شيء يستحق الذكر لندرة وسائل التدوين وعدم الاهتمام بحفظ الوثائق المرتبط أساساً بحضارة الشعوب وتقدمها. وإن كل الذي بين أيدينا ما ورد في كتابات فلاسفة اليونان، وهي كافية في الحكم على ظهور كتابات في مثل هذا الاتجاه منذ فترة مبكرة، وإن حال دون وصولها إلى ما ألمحنا إليه قبل قليل. فإذا أضفنا إلى ذلك أن تلك الشعوب كانت تحيا في ظل وثنيات متعددة من مترائية وغيرها: تعزز لدينا ظهور هذا الاتجاه بجميع صوره الكالحة، في تلك الأوساط التي لم تكن تؤمن بدين قويم نابع من الوحي، حتى يمكن لها أن تجد فيه إجابات عن تساؤلاتها، وتتخذ من منطلقاته الفكرية ومسلماته المنطقية ما ينقذها من مساوي ذلك الاتجاه، ويساعدها على معرفة أسرار الكون وحقائقه المذهلة، ويحررها من أسْرِ الطبيعة، ويكشف لها عن غموض الظواهر الكونية التي ظلت تحول دون الوصول إلى بواطن الأمور، ويسمو بالعقل عن تصديق الأوهام والأساطير، ويقيم حواراً مع مستجدات الحياة في ظل شريعة الله التي ارتضاها لعباده.

وكان يمكن للمسيحية ـ على الرغم من محدودية تشريعاتها زماناً ومكاناً وخصوصية توجهها ـ أن تنقذ تلك الشعوب من الضياع والحيرة فيما يتعلق بالعقيدة على الأقل، وتقودها ولو لبعض الوقت إلى تحقيق أهداف سامية،

(20) سورة الحج، الآية: 46.

وتنقلها إلى واقع جديد ينبذ الوثنية، ويحطم قيودها التي كبلتها قروناً من التاريخ، ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك كله. فالمسيحية قد انحرفت منذ البداية عن خط سيرها الصحيح، بسبب ما تعرضت له من تحريف على يد بولس، ثم على يد الكنيسة من بعده، أفقدها أصولها وحكمتها وصدق توجهها. ولم تعد تحتفظ بشيء يذكر من تعاليم المسيح. وحتى إذا وجد شيء من ذلك فلم يعد له تأثير في الفكر والحياة بعد امتزاجه بالفلسفة الإغريقية والوثنيات القديمة، واختلاطه بألوان من الأساطير والأوهام والخرافات أبدع الخيال في بسطها، وأصبح ذلك الركام كله يمثل أسراراً مقدسة وأموراً مسلمة في وجدان من آمنوا بالمسيحية لا يجوز نقده أو الخروج عنه.

ولم يتوقف التحريف عند حدود معينة، وإنما طال كلَّ شيء بما في ذلك العقيدة ذاتها، فتحول التوحيد إلى معادلة رياضية سمجة، يصعب فك رموزها، أو الخروج بتصور منطقي يجعل لكيفية الإيمان بالله حداً لا يتجاوزه، وقطعاً لأي رجعة أو إصلاح حاربت الكنيسة التوحيد، وقضت على أنصاره، وأحرقت مصادره، وقدمت صورة بديلة مركبة ادعت أنها فوق العقل، وسرٌ من الأسرار المقدسة لترد بذلك على أي اعتراض قد يواجهها. ومع ذلك فقد كان عرضة للنقد من أتباع المسيحية وخارجها عبر تاريخها الطويل؛ إذ يصعب على من فيه بقية عقل أن يسلم بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد أي أن (1 + 1 + 1 = 1) و(1= 3) و(3 - 2 = 3) إنهم ثلاثة كائنات أو أقانيم ليس فيهم أحد كان قبل واحد من صاحبيه أو بعده، وليس فيهم أحد أعظم من أحد صاحبيه أو أهون منه شأناً، بل هم جميعاً أزليون متساوون، إنهم ثلاثة كائنات، كل منهم مساو وحده للثلاثة معاً[21].

كما امتدت معاول الهدم إلى الشريعة حصن العقيدة المنيع، فأحدثت فيه شروخاً وثلماً، وأضفت على كثير من المسائل تناقضات صريحة بين التوراة والإنجيل، فأباحت أكل لحم الخنزير، ومنعت الذكاة الشرعية، والختان

(21) المسيح في مفهوم معاصر. عصام الدين حنفي ناصف ط1/ 1979 دار الطليعة بيروت هامش 11.

والطلاق، وأجازت التحلل من حرفية القانون، وأوجبت الرهبانية، وحرمت على الرهبان الزواج، وخلت من أية قوانين صارمة تحد من طغيان الإنسان وأنانيته وبغيه وتقويم ما انحرف من سلوكه.

ولم تدعُ إلى تطبيق موجبات الحدود والعقوبات الزجرية ضد مرتكبي المظالم، إلى جانب ما أضافته الكنيسة عبر تاريخها الطويل من طقوس وأسرار كبيرة متعددة الأصول، بعضها إغريقي، وبعضها بوذي، وبعضها منقول عن المثرائية، ديانة بولس الأولى. ومن هذه الأسرار ما يتعلق بأمور العقيدة، كسر الثالوث وهو أكبر أسرار المسيحية وأخطرها، ومنها ما يتعلق بشؤون العبادة والطقوس، كسر التعميد، وسر العشاء الرباني، وسر الاعتراف؛ وسر الزيت المقدس، وسر الصلاة الأخيرة للمحتضر وأمثالها[22]. كما أباحت عبادة التماثيل والصور وكل ما عليه مسحة الوثنية، على الرغم من أن شريعة التوراة تحرم التصوير ونحت التماثيل، وتعده من أعمال الوثنيين[23]. وسمحت لنفسها ببيع صكوك الغفران وادعت المعجزات وخوارق العادات، وفرضت ضريبة العشور، ولم تجعلها عملاً من أعمال البر والإحسان، بل اعتبرتها حقاً من حقوقها يجب على رعاياها أداؤه. وعلاوة على كل ذلك فقد كان للكنيسة سلسلةٌ من المبادئ العلمية حول العالم والإنسان، كان لها غالباً جذورٌ فلسفية يونانية، ثم تقبلها العلماء الكبار بالتدريج، وادخلوها في الدين المسيحي، فأصبحت بموجب ذلك أصولاً مسيحية إلى جانب أصول العقائد المذهبية، وصارت مخالفةُ تلك العلوم أمراً ممنوعاً بل إن الكنيسة قد حاربت كل مخالفة من هذا القبيل، وبذلك خلطت بين المعتقدات العلمية البشرية الموروثة عن الفلاسفة الأقدمين وعلماء الكلام المسيحيين إلى جانب المبادئ الدينية، وحكمت بأن كل مخالفة لها موجبة للارتداد عن الدين. ولم تكتف باستصدار فتاوي الارتداد، وإنما عمدت إلى إنشاء محاكم التفتيش تتعقب سلوك الناس، وكانت لها قوانين ولوائح خاصة

---

(22) العلمانية. سفر بن عبد الرحمن الحوالي ط/ 1408هـ 1987م الدار السلفية للنشر والتوزيع الكويت ص96.

(23) سفر تثنية الاشتراع.

بها، ويطلب من الناس أن يبلغوا أعضاء محكمة التفتيش أخبار كل ملحد ولا ديني ومبتدع، مع أن كل ما تتضمنه عقائدها لا يعدو أن يكون بدعاً مستحدثة استمدت أصولها من الوثنية، أو ستاراً يُخفي وراءه وثنية مقنعة عمدت الكنيسة إلى تبريره وستر نقائصه بكلمة سر.

وكان القساوسة يحرضون العامة على الوشاية بالآخرين، واتهام الجيران والأصدقاء والأقارب، ويضمنون للوشاة الإبقاء على ما يدلون به من شهادات في حق غيرهم تحت طي الكتمان، وكانت وسائل التعذيب تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، ولكنها كانت قاسية، فتارة كانوا يشدون يدي المتهم إلى الخلف ثم يعلقونه بهما، وأحياناً يوثقونه وثاقاً محكماً لا يقدر معه على الحركة ثم يضخون الماء في بلعومه حتى يختنق، وأحياناً أخرى كانوا يشدون الحبال في يديه ورجليه بقوة هائلة بحيث تخترق الحبال اللحم فتصل إلى العظم، وأحياناً يلجأون إلى حرق الضحية. . وكان كبار رجال الكنيسة يقفون في الساحات والأسواق يرقبون أجسام أعدائهم وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة وتحترق وتخمد معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رماداً تذروه الرياح[24].

وقد يتساءل المرء عن الأسباب التي دعت الكنيسة إلى إنشاء محاكم التفتيش مع مطلع القرن الثالث عشر، وإقحام نفسها فيما يتعارض مع روح التسامح التي دعت إليها المسيحية، ومخالفتها أيضاً لتعاليمها الداعية إلى الإصلاح والبر! إن الجواب على مثل هذا التساؤل يكمن في الهزال المتفشي في كيان الكنيسة، والقلق المستتر في أعماقها منذ بدء يقظة العقل بعد طول سبات، فلجأت إلى مثل هذه الشناعات لتدفع عن نفسها المصير الذي كان ينتظرها على بعد خطوات من الزمن غير البعيد.

وكان يمكن أن تحافظ الكنيسة على مكانتها كما كانت عليه قبل القرن الثالث عشر لو لم تقحم نفسها في متاهات محاكم التفتيش التي لم تكن معروفةً

(24) انظر في هذا قصة الحضارة.

قبل هذا القرن، وتتدخل في شؤون الناس بشكل سافر، وتأخذ بالظنة والوشاية، وتحجر على العقل التفكير والبحث في أمور الكون المادي بما تقتضيه الملاحظات والمشاهدات العلمية، وأن تُلزم الآخرين بالتفسيرات التي تقوم بمركزية الكون، وتحديد عمر الإنسان على الأرض، مع مخالفة هذه التفسيرات لحقائق العلم النظرية والعلمية[25]. فكانت هذه التفسيرات المجحفة في حق المعرفة إيذاناً بالثورة على الكنيسة مع بداية النهضة العلمية التي انطلقت في مطلع القرن السابع عشر تطالب بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيداً عن الوحي. ونظراً لسطوة الكنيسة في تلك المرحلة المبكرة فلم تصل إلى حد القطيعة مع الوحي بالكلية أو إنكاره، وإنما اكتفى علماء التجديد بأن يكون لكل واحد منهما دائرته الخاصة به، وكان من بين الفلاسفة الذين دعوا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة بعيداً عن الدين ديكارت الذي كان يرى أن ميدان العلم والطبيعة، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية، وأدواته الرياضية والتجربة، ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر، ويعتمد على الاعتقاد والتسليم، فلا مضايقة بين العلم والدين، ولا سلطان لأحدهما على الآخر[26]. وتبعه في هذا بيكون الذي قال عنه أندرسون (إن أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي)[27].

ولا يعني هذا أن جميع علماء هذا القرن قد هادنوا الكنيسة حفاظاً على أرواحهم من بطش الكنيسة، فقد وجد من بينهم من دفع به الحقد على الكنيسة وأغراه ضعف أدلتها إلى تحمل تبعات المجاهرة بآرائه، فضحى بكل شيء،

---

(25) انظر مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب ط2/ 1987 دار الشروق بيروت ص47 ولمزيد التوضيح فإن الكنيسة كانت تقول إن الله خالق العالم ابتداء سنة 4004ق.م. وتوج ذلك بخلق الإنسان وإن الطوفان وقع بعد خلق آدم ب2262) سنة كما كانت تزعم بأن الأرض مركز الكون لأن ابن الله الأقنوم الثاني نزل عليها.. انظر العلمانية سفر بن عبد الرحمن الحوالي الطبعة السابقة ص150 ـ 151.

(26) انظر العلم والدين في الفلسفة المعاصرة إميل بونرو ترجمة أحمد فؤاد الأهواني ط1/ 1973 مصر ص19.

(27) انظر محمد قطب المصدر السابق ص47.

وطعن في مكانتها، واستهان بدورها، بل بلغ الأمر ببعضهم مَنْ تجاوز كل الحدود، فلم يكتف بالطعن في الكنيسة، وإنما لجأ إلى تسليط منهج النقد التاريخي على نصوص الكتاب المقدس، ومن بين هؤلاء اسبينوزا، الفيلسوف اليهودي الذي أنكر أن تكون أسفار التوراة مملاة من النبي موسى عليه السلام، واستدل على صحة هذا الادعاء بما ورد في سفر التثنية من ذكر موسى ورثائه، فأنكر أن يقول موسى على نفسه (لم يأت نبي مثله من بعده)[28] أو: (هناك مات موسى ولا أحد يعرف قبره)[29]. واستبعد أيضاً صحة ما ورد في التوراة من تعيين أسماء أماكن لم توضع لها إلا بعد موت موسى بقرون عديدة[30]، وتبعه في هذا النقد باسكال؛ فطعن في عقيدة الخطيئة، الأساس الذي قامت عليه المسيحية، فقال: لا شيء يعصر القلب ويزحم العقل بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية، وأنه يبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يُعاقَب إنسانٌ من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه قبل عدة قرون[31].

وأياً كان الأمر فإن عداء الكنيسة قد اتخذ في هذه المرحلة التاريخية طريقاً وسطاً، ولكنه ظل يتفاقم مع مطلع القرن الثامن عشر، ويزداد عمقاً في حس الأوروبي إلى أن تحول إلى عداء سافر، غير أنه لم يكن في هذه المرة ضد الكنيسة وإنما أصبح ضد الدين. ومن ثم فلم يعد الوحي عند هؤلاء مصدر المعرفة، وإنما حل العقل محله، كما حلت الطبيعة معبوداً ثانياً. أما العقل فقد أصبح هو الحكم الوحيد في كل شيء، واعتبروا جميع ما عداه مما ورد في المسيحية وهماً وخرافة وأباطيل مضللة وعقائد مرذولة، كما اعتبروا الطبيعة الملاذ الأخير. قال سول: وصار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل جديد لذلك ووجوده في الطبيعة. وهو على حق لأن في النفس

---

(28) موجز تاريخ الأديان. فيلسيان شالي: ترجمة حافظ الجمالي ط1/ 1991 دار طلاس دمشق ص158.

(29) سفر التثنية «الاشتراع».

(30) العلمانية مصدر سابق ص154.

(31) انظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة توفيق الطويل ط2/ دت مصر ص14.

رغبة كامنة تدفع الإنسان إلى إشباع تلك الرغبة بدين ما أياً كان مصدره. وبذلك فقد أخطأ رجال الفكر في أوروبا حين ظنوا أن المسيحية هي ما يعرضه عليهم مندوبوها الجاحدون، فذهبوا يحاربون الدين والألٰه بدلاً من رجال الدين التقليديين ومفاهيمهم الفاسدة، فوقعوا بذلك في خطأ كبير[32]؛ لتعميمهم تلك الأحكام التي وإن صدقت على المسيحية ـ لما تعرضت له من تحريف وما تحتوي عليه من تناقض وما يقوم به الرهبان من تدخل بغير حق في حياة الناس ومصائرهم ـ فهي لا تصدق على الدين الصحيح.

وهكذا يمكن القول بأن ما أضافه الإنسان إلى الديانة المسيحية وما قدمه من التفسيرات الخاطئة التي ابتدأت منذ مطلع القرن الرابع الميلادي، بالإضافة إلى عدم اكتراث الكنيسة بالحقائق العلمية؛ كل ذلك قد قدم للماديين والملحدين أدلة واضحة مكنتهم من الانتصار على الكنيسة، وعندما خسرت الكنيسة معركتها في تلك الجوانب سهلت هزيمتها في مواقع أخرى، غير أنه لا يعني هذا أن الصراع انتهى إلى الأبد. . ويرجع السبب في ذلك إلى أن أي خصمين يملك كل منهما نصف الحقيقة لا يمكن أن ينتصر أحدهما على الآخر انتصاراً نهائياً. وتنطبق هذه البديهية على الصراع بين العلم والدين الأوربيين، فالمواقع التي احتلها العلم من مناطق نفوذ الدين هي في الحقيقة المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الوهم والخرافة، كما أن المواقع التي صمد فيها الدين أمام الهجوم العلمي الكاسح هي المواقع التي انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التخرصات والأهواء. وحينئذ نستطيع القول مطمئنين بأن الحق في كل من الطرفين هو الذي انتصر أو سينتصر على الباطل في كليهما وأنه لو كان الدين الأوروبي حقاً خالصاً والعلم الأوروبي يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق. وبما أن الدين بصبغته الإلٰهية لم يدخل المعركة فإن الأوفق أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم وليس بين الدين والعلم[33].

---

(32) الدين في مواجهة العلم وحيد الدين خان ط4/ 1972 المختار الإسلامي القاهرة ص.

(33) العلمانية مصدر سابق ص146.

ولا يخفى على أحد سواء أكان الصراع بين العلم والدين أم بينه وبين الكنيسة، فقد أدى الأمر في النهاية إلى تلك النتيجة القاسية المتمثلة في ظهور الفلسفة المادية في أوروبا على درجات متفاوتة بين شرقه وغربه، وإذا كان هنالك من يعتقد بأن الاتجاه نحو المادية قد اقترن بتقدم النهضة العلمية أو أن المفكرين هم الذين دعوا إلى هذا الاتجاه، فإن الواقع يثبت غير ذلك، فقد وجد إلى جانب من نادوا بالمادية مفكرون بارزون كانت لتأملاتهم في صفحة الكون البديع ونظام الحكم طريقاً إلى الإيمان بالله، وسنداً قوياً في الرد على الملحدين، ففي الوقت الذي نجد (بيرت راند راسل) على سبيل المثال، يَعُد نفسه مادياً وكان يقول: إن البشرية وليدة عوامل لم توجد وفق تدبير مسبق أو غاية مقصودة، فأصل الإنسان هو النمو والتطور، وحتى عواطفه مثل الأمل والخوف والحب والعقيدة فليست إلا مظهراً من مظاهر التلاقي العشوائي للذرات المختلفة، نجد أنشتاين نابغة العلم في القرن العشرين يقف في الطرف المقابل لنظرة راسل فيقول: في عالم المجهول توجد قوة عاقلة قادرة يكون هذا العالم شاهداً على وجودها، ولا يمكن أن يكون راسل أكثر اطلاعاً على المفاهيم العلمية من أنشتاين، أو أن علماء القرن الثامن عشر أو التاسع عشر كانوا أكثر اطلاعاً على المفاهيم العلمية في عصرهم، في حين كان باستور المتدين الموحد جاهلاً بذلك، أو أن يقال إن وليم جيمس العالم الموحد بل العارف المتعبد أو برجسون أو إلكسس كارل وأمثالهم لم يكونوا مطلعين على مفاهيم عصرهم العلمية، أو كانوا يفكرون بعقلية ما قبل ألف عام في حين أن البعض الذي لم يكن يملك معشار ما يملك هؤلاء الأفذاذ من معلومات ولم يعتقد بالله.. نقول عنه إنه كان أكثر اطلاعاً على النظرات الحديثة[34].

(34) انظر الدوافع نحو المادية مرتضى المطهري ط1/ 1402هـ ص20 ـ 21 نقلاً عن الله يتجلى في عصر العلم.